

من "جيش الشعب" إلى "جيش الرب".. القصة الكاملة لتدوين جيش الاحتلال الإسرائيلي



تصف الباحثة المتخصصة في الشؤون الإسرائيلية، هنيدي غانم، المجتمع الإسرائيلي بأنه قوميّ صهيونيّ استعماريّ بالضرورة، ولا يمكن أن يكون غير ذلك. وتعتمد الباحثة في تصنيفها على البنية الجوهرية للدين اليهودي، القائمة على ثلاث لا يوجد في أي ديانة أخرى، هو: الشعب والإله والأرض، حيث تحضر الأرض كركن أساسي في الانتماء إلى الدين، وكطرف في عقده لاهوتي.

ووفقاً لأقوالها، فإن اللغة الدينية تجعل "الأرض وعداً إلهياً" لتسبغ على الفعل الاستيطاني الاستعماري الاحتلالي غطاءً شرعياً، يجعله جزءاً من فعل حركة قومية، وتطبيقاً مُسيئاً للدين اليهودي، يتلشى فيه الشكل الأساسي للدين، لتغدو الصهيونية اليهودية هي الأساس لدى الجمهور، وفي الحكومة، وفي صفوف الجيش على حدّ سواء.

هناك، حيث يتعاضم حضور الدين خلال العقد الأخير، متجاوزاً حيز الشعائر الدينية إلى التداخل مع بنية الوعي القتالي والعقيدة الميدانية، مختتمًا مسارًا تاريخيًا طويلًا من النزاع بين العلمانية والتدين، سبق إعلان "إسرائيل" دولةً على أرض فلسطين، وتطور خلال حروبها واتفاقيات التطبيع معها، حتى تموضع في تيارات صهيونية متدينة تتمدد اليوم داخل الوحدات القتالية المختلفة، ومؤسسات إعداد الضباط.

من هنا تأتي هذه المادة لتتبع انتقال التدين وفكر الحاخامية العسكرية من مجرد "خدمة دينية" إلى موجّه ومرشد لعقيدة الحرب ووعيتها وخطابها وأهدافها، وصولاً إلى كهنوت للحرب ومرجعية قتالية ودينية لها، لتغدو ذخيرة الحرب معقدة بهذا الفكر قبل تصويبها على الفلسطينيين ومحيطهم العربي، مانحةً مسار الحرب مباركتها، ومسبغةً عليه "شرعية أخلاقية" و"طهارة سلاح" تتجاوز الانتهاكات الأخلاقية والإنسانية والقانونية، وتجعل من المحو والتطهير "حرًا مقدسة".

الدين والأرض والجيش.. الجذور الأولى للصهيونية الدينية

بن غوريون والمتدينون.. الصفقة التي غيرت جيش الاحتلال

في 24 فبراير/شباط 1921، اجتمعت مجموعة من الحاخامات في القدس تحت مظلة حكومة الانتداب البريطاني، لانتخاب المجلس الحاخامي لفلسطين، وإعلان كل من إبراهيم إسحق كوك حاخامًا للأشكناز، ويعقوب مثير حاخامًا للسفارديم. ووفقًا لهذا الاجتماع، انتقلت سلطة الحاخامية من إسطنبول إلى فلسطين، لتغدو المرجعية الدينية الوحيدة للشريعة اليهودية.

وخلال السنوات الأولى من الحاخامية الكبرى، نشط كل من كوك ومثير في خدمة المشروع الصهيوني، رغم عدم رضاها الكامل عنه نتيجة "تغييبه لقدسية الله واسمه العظيم"، فبينما توجه كوك نحو أوروبا الغربية والولايات المتحدة لجمع التمويل للمدارس الدينية اليهودية في فلسطين، أسس مركز "هاراف"، أول مدرسة دينية يهودية، ونواة الصهيونية الدينية، ومنظمة "غوش إيمونيم" الاستيطانية، وما تفرّع عنها من جماعات ومنظمات استيطانية أخرى.



دافيد بن غوريون برفقة قادة عسكريين إسرائيليين في مستوطنة إيلات (أم الرشراش الفلسطينية) عام 1949. المصدر: Israel PikiWiki / Commons Wikimedia.

في المقابل، نشط مثير في توجيه يهود أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى والدول العربية، مثل تونس والجزائر والمغرب، وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين، كما أسس أحياءً يهودية في قلب القدس، ومؤسسات لإحياء اللغة العبرية، وحافظ على علاقاته بالسلطين العرب.

ورغم وفاة كوك ومثير قبيل اكتمال المشروع الصهيوني بقيام دولة "إسرائيل"، إلا أن نهجها في معاداة هذا المشروع استمر عبر جماعتيها وخلفائهما، إذ بقيت علاقة الحاخامية بالتنظيمات العسكرية

الصهيونية، مثل "الهاجاناه" و"البلماخ"، باردة، نتيجة اعتماد هذه التنظيمات بصورة أساسية على البعد القومي العلماني، رغم وجود تقاطعات حول الهدف النهائي لكلٍ منها؛ فما تُطلق عليه الحاخامية "الخلاص القومي"، تُعرّفه الصهيونية بأنه "مشروع قومي".

التحول الأساسي جرى على يد دافيد بن غوريون، أول رئيس وزراء لـ"إسرائيل"، الذي وجد نفسه مدفوعًا لإعادة هيكلة المجتمع وتوحيده، وخلق شرعية يهودية داخلية يكون الجيش عمودها الفقري، إلى جانب دمج المتدينين فيه. بدأت شرارة ذلك بعد وقتٍ قصير من الحرب، حين نشبت أزمة حكومية على خلفية رفض اثنين من المجندين المتدينين، كانا يعملان طبّاخين في الجيش، طهي الطعام يوم السبت، قبيل خروج وحدثهما لخوض إحدى المعارك. وعلى إثر ذلك، قُدّم المجندان إلى محاكمة عسكرية، وصدر قرار بحبسهما، ما دفع وزير الأديان حينها، الحاخام ميمون، إلى تقديم استقالته من الحكومة الإسرائيلية المؤقتة.

وعلى إثر ذلك، أُقيمت لجنة وزارية لشؤون الجندي المتدين، وقُدّم الوزراء المتدينون وأعضاء الحاخامية الرئيسية توصية دعت إلى جمع الجنود المتدينين الذين خدموا في أذرع جيش الاحتلال الإسرائيلي المختلفة ضمن وحدات متدينة منفصلة، تفاديًا لوضعهم أمام اختبارات ومواقف صعبة، استنادًا إلى أن جيش الاحتلال الإسرائيلي كان في غالبيته علمانيًا.

شلومو غورين وصعود "الحاخام المحارب"

لكن الاقتراح واجه معارضة شديدة من جانب الحاخام شلومو غورين، الذي لم يرغب في خلق "غيتو" للجنود المتدينين داخل الجيش، واعتقد أن مثل هذا الوضع سيؤدي إلى التنازل عن سنّ قوانين دينية. وقد أبدى بن غوريون، الذي كانت بوصلته تتجه نحو توحيد الجيش والجمهور، ما مهّد الطريق للتشريعات الدينية، ليصدر لاحقًا أمرًا بتوحيد جميع الميليشيات الصهيونية المسلحة تحت راية "جيش الدفاع الإسرائيلي".

ثم عمد إلى تسوية سياسية واستراتيجية عُرفت باسم "اتفاق الوضع الراهن"، هدفت إلى دمج اليهود المتدينين، الذين كانت غالبيتهم من الدول العربية وأوروبا الشرقية، في الدولة والجيش، ومنحتهم صلاحيات تتعلق بالقضاء والأحوال الشخصية وتنظيم الشعائر والجنائز ومنح أختام الطعام الحلال، كما جعلت من احترام السبت فقرًا معتمدًا في المؤسسة الرسمية، وأعفت طلبة المدارس الدينية من التجنيد، مقدّمةً لهذه المدارس معونات ودعمًا حكوميًا مرتفعًا.



شلومو غورين، أول رئيس للحاخامية العسكرية في جيش الاحتلال الإسرائيلي، والحاخام الأكبر الأشكنازي لـ"إسرائيل" بين عامي 1973 و1983.

وهكذا وُلدت "الحاخامية العسكرية" كأحد الأسلحة الرسمية الإسرائيلية، بمهمة ظاهرية تتمثل في توفير الخدمات الدينية للجنود اليهود، وضمان الطعام الحلال، وإقامة الصلوات، والإشراف على دفن القتلى وفق الشعائر اليهودية، وتنظيم الاحتفالات الدينية في الثكنات. أما مهمتها الأخرى، فتمثلت في ربط الخدمة العسكرية بالواجب القومي، وتجاوز ميراث "كوك ومثير" وموقفهما من المشروع الصهيوني، وفكرة انتظار المسيح المخلص قبل قيام الدولة.

وما إن أصبحت الحاخامية العسكرية وحدة ثابتة داخل الجيش، حتى أُزيلت عقبة أساسية أمام توحيد المنظمات والمليشيات العسكرية الصهيونية في جيش واحد، تنشط فيه العلمانية إلى جانب الدينية لتعزيز التوسع والاستيطان. لكنها، في الواقع، لم تكن المرة الأولى التي يختبر فيها الجنود اليهود وجود حاخامية عسكرية أو خدمات دينية مؤسساتية.

إذ بدأ ذلك منذ الفيلق اليهودي في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى، وهو أول وحدة عسكرية يهودية تُنظم بعد أكثر من 1800 عام على سقوط مملكة يهوذا، ثم اللواء اليهودي في الحرب العالمية الثانية، اللذين حظيا بحاخامية عسكرية لتوفير الخدمات الدينية والدعم للجنود اليهود الذين خدموا في الوحدات العسكرية.

وهكذا، واستنادًا إلى الوصف التوراتي للكهنة الذين يُقوون الشعب في زمن الحرب، عُهد بالحاخامية العسكرية الأولى في جيش الاحتلال الإسرائيلي النظامي إلى شلومو غورين، اليهودي البولندي الذي هاجر إلى فلسطين في وقت مبكر، ورُسم في الحاخامية التلمودية في سن السابعة عشرة من عمره، إثر نشره كتابه "القرايين الطقسية في الهيكل السابق"، قبل أن يغيّر اسمه من "غوروتشيك" إلى "شلومو غورين".

اللافت أن شلومو غورين كان حينها جنديًا مقائلًا في "الهاجاناه"، قبل أن يجتاز تدريبات القوات المظلية خلال حرب 1948، ما جعله نموذجًا للخليط المطلوب من الشغف العسكري والهوية الدينية، وهو الفكر الذي سعى إلى ترسيخه في بنية جيش الاحتلال الإسرائيلي طوال فترة خدمته.

ووفقًا لدراسة معنونة بـ"الحاخام العسكري في جيش الدفاع الإسرائيلي: بين "كاهن مُختار للحرب" و"مُقدّم خدمات دينية""، للباحث أهارون (روني) كامبينسكي، فإن غورين لم يكتف بالمهام التقليدية للحاخام العسكري، بل سعى إلى منح دوره بُعدًا روحيًا ونفسيًا أعمق، عبر إصدار "أحكام هلاخية (دينية)"، وممارسة تأثير روحي من خلال شخصيته الأخلاقية، وولائه لكل جندي، وحكمته، وقدرته على تعزيز معنويات من يذهبون إلى المعركة، ومواساة الجرحى.

كما وضع أسس ممارسة الحاخامية العسكرية، بدءًا من التزام ضباطها بارتداء الزي العسكري، وأداء الخدمة العسكرية، والإلمام بمتطلبات وحداتهم وأساسيات العمل فيها، إلى جانب إصدار الأحكام الشرعية، وحل المسائل التي تنشأ نتيجة التعارض بين العلمانية والدينية، وتعزيز الروح المعنوية للمجندين.

كيف تمدد نفوذ الحاخامات داخل الجيش؟

القدس والهيكل.. اللحظة التي تدين فيها الجيش أكثر

رغم الحروب المختلفة التي خاضتها "إسرائيل" في تلك الفترة، حافظت الحاخامية العسكرية على أدوار خدمية وأيديولوجية عامة، مثل تأمين طعام "الكوشر" لجميع الجنود، وضمان ممارسة الجنود المتدينين لشعائرتهم، وتوزيع الكتب الدينية، وإلقاء المحاضرات على الجنود، قبل أن تأتي اللحظة

الفارقة في تاريخ الصهيونية الدينية عامة، والحاخامية العسكرية خاصة، مع احتلال الضفة الغربية والقدس عام 1967.

تكمّن أهمية هذه اللحظة في العمق التاريخي لهذه المناطق داخل الفكر الصهيوني، وارتباطها بمملكتي يهودا والسامرة، وبناء الهيكل في الحرم القدسي وتهويده. أما التعبير الأبرز عنها، فتمثل في ظهور شلومو غورين بزيه العسكري، بعد ترقّيته إلى رتبة جنرال، حاملاً لفائف التوراة وبوقه التلمودي في صحن قبة الصخرة المشرفة، مؤدياً أول صلاة يهودية في المكان.



كبير حاخامات جيش الاحتلال الإسرائيلي، شلومو غورين، يحمل لفافة تورا وينفخ في الشوفار، أو قرن الكبش، في 7 يونيو/حزيران 1967 داخل الحرم القدسي في القدس، حرب يونيو/حزيران 1967. الصورة: Images Getty / Newsmakers.

وعلى غرار صورة موشيه ديان لحظة اقتحامه الحرم المقدسي، شكّلت صورة غورين، باعتباره "الحاخام المحارب"، رمزية دينية وطنية في الوعي الجماعي الإسرائيلي، خاصة بعد أن بثّ خطابًا مسجلاً عبر الإذاعة العسكرية دعا فيه إلى إقامة الهيكل الثالث على قمة جبل الزيتون في القدس، وقال: "بالتأكيد كان يجب علينا تفجير قبة الصخرة ومسجد الأقصى، إنها مأساة أننا لم نفعل ذلك". ثم أدى أول جلسة صلاة يهودية عند حائط البراق منذ عام 1948، محاطًا بالجنود الإسرائيليين.

كما قاد مجموعات يهودية للصلاة في الحرم القدسي متحدثًا الحراس المسلمين، ثم أصدر فتوى مخالفة لموقف "الأغودات"، تنص على إلزامية صلاة اليهود داخل الحرم القدسي، وتحديدًا في منطقة الصخرة المشرفة، التي وصفها بأنها "قدس الأقداس"، قائلًا: "اليهود لم يُسمح لهم فقط، بل يؤمرون بالصعود والصلاة على الجبل، فهو أقدس موقع في اليهودية".

تقاعد غورين عام 1971 من منصب الحاخام العسكري الرئيسي للجيش الإسرائيلي، ليُعيّن حاخامًا رئيسيًا لتل أبيب-يافا، ثم أصبح لاحقًا الحاخام الأكبر الأشكنازي لـ"إسرائيل" بين عامي 1973 و1983، قبل وفاته عام 1994. وهكذا انتهت الحقبة الأولى من الحاخامية العسكرية بصورة غورين محاطًا بالجنود، ينفخ في بوقه أمام حائط البراق، أو حائلًا لفائف التوراة في صحن قبة الصخرة المشرفة، وهي صورة أضحت، حتى اليوم، جزءًا من مهمة الحاخامية العسكرية وعلاقتها بالمجتمع الإسرائيلي.

لا يقتصر ذلك على صورة شلومو غورين فقط، بل يمتد إلى مواقفه التي ظلت مؤثرة في المسار الديني والعسكري الإسرائيلي، بدءًا من تهويده للحرم المقدسي، وضمّ حائط البراق إلى السيطرة الدينية اليهودية، وهدم حارة المغاربة المتاخمة له، وإطلاق سلسلة حفريات تحت المسجد الأقصى عام 1983، ورفضه أي علاقات بين الفاتيكان و"إسرائيل"، ومعارضته تفكيك المستوطنات باعتبارها جزءًا من "أرض إسرائيل التوراتية"، ودعوته إلى قتل ياسر عرفات، وانتهاءً بسلسلة صلواته "دعاء من أجل سلامة جنود جيش الدفاع قبل ذهابهم إلى المعركة"، التي احتلت مقدمة كتاب الصلاة الرسمي للحاخامية العسكرية حتى اليوم.



الحاخام شلومو غورين يبارك رئيس الوزراء مناحيم بيغن عند عودته، في 26 ديسمبر/كانون الأول 1977، من محادثات السلام التمهيدية في الإسماعيلية بمصر. ويظهر معهما الحاخام الأكبر السفاردي عوفاديا يوسف. المصدر: يعقوب ساعر، مكتب الصحافة الحكومي الإسرائيلي.

بعد عام 1971، افتتحت أولى دورات الحاخامات العسكريين نتيجة قلة عددهم، إذ توّج الحاخامات الآخرون في عهد غورين على هيئة الأركان العامة، والقيادات الإقليمية، وفيالق الجيش الكبرى، بينما انتشر المسؤولون عن الشؤون الدينية في الوحدات الأدنى.

وبعد تقاعد غورين من منصبه حاخامًا عسكريًا أكبر، تولى المنصب مردخاي بيرون بين عامي 1971 و1977، ثم جاد نافون حتى عام 2000. وفي تلك الحقبة، كان الحاخام يترك منصبه نتيجة الوفاة أو التقاعد فقط، وكانت سلطته تبدأ من الدعم الروحي، لتتمدد إلى الدعم النفسي والتواصل مع جميع الجنود، وتجديد تقاليد الشتات اليهودي، ما جعله أشبه بـ"إشارة مرور في منتصف طريق الجندي".

وفي عام 2000، أنهى الحاخام العام جاد نافون فترة ولاية امتدت 23 عامًا، قبل أن يتولى إسرائيل فايس منصبه، لينطلق من خلاله في تغيير شكل جيش الاحتلال الإسرائيلي، تزامنًا مع خطاب جديد في العلاقة بين الدين والعلمانية. وفي الواقع، كانت هذه هي اللحظة التي أغفلها دافيد بن غوريون في اتفاه مع المتدينين، إذ ظن أن علمانية المجتمع، وديمقراطية المهاجرين اليهود من الدول الغربية، ستبتلع الجانب الديني، قبل أن يقتنصها الحاخام الخامس أفيخاي رونتسكي، الذي منح الحروب الإسرائيلية شرعيتها التلمودية.

"معركة ضد العماليق".. التوراة كخطاب حرب

أفيخاي رونتسكي والانعطاف الكبرى

في مطلع عام 2006، عُيّن أفيخاي رونتسكي حاخامًا عسكريًا أكبر، في لحظة بالغة الحساسية ضمن

الصراع بين الصهيونية الدينية والعلمانية السياسية. إذ جاء تعيينه بعد عام واحد من إخلاء مستوطنات قطاع غزة ضمن خطة "فك الارتباط"، وهو ما أثار الحركات الاستيطانية الدينية، ودفعها إلى التصعيد ورفض الانخراط في الأنشطة الحكومية والعسكرية المرتبطة بالإخلاء ونقل المستوطنين.

وجاء رونتسكي في تلك اللحظة التي سبقت حرب لبنان عام 2006، والحروب الإسرائيلية على قطاع غزة، وتراجع عملية السلام مع الفلسطينيين، ما منح خطابه رنينًا خاصًا في آذان قادة الصهيونية الدينية، خاصة أنه مؤسس ورئيس منظمة "يشيفات إيتمار" الاستيطانية في مستوطنة إيتمار بالضفة الغربية، ويحمل رؤية تعتبر جيش الاحتلال الإسرائيلي أداة ذات وظيفة دينية وتوراتية، لا مجرد مؤسسة أمنية. كما أن خلفيته العائلية العلمانية، وصلاته بمركزي "هاراف" و"معهد مائير" الدينيين، منحته قدرة أكبر على المراوحة بين التيارين.

بدأ ذلك خلال حرب لبنان، حين اجتمع رونتسكي مع الحاخام في الجيش الأمريكي يعقوب تسفي غولدشتاين، بهدف تعزيز دور الحاخام في كلا الجيشين، عبر انغماس أكبر للصلوات والدعوات داخل الحروب، ووصولًا إلى المشاركة في الفعل القتالي المباشر، ومباركة آثاره وانتهاكاته بوصفها نصرًا "تلموديًا" مستحقًا.

وترافق ذلك مع إصداره معايير جديدة لمهمة الحاخام العسكري، من بينها الخبرة القتالية والانخراط المباشر في الأنشطة العسكرية، مثل الدورات والتدريبات، إلى جانب إعادة هيكلة قيادة الحاخامية العسكرية وتحويلها إلى بنية تنظيمية يكون على رأس كل فيلق فيها "رئيس مقر". كما جعل التفوق العسكري أساسًا للترقية، لا المرجعية الدينية وحدها، وحدد مدة الخدمة بثلاث سنوات، والسقف العمري للحاخام العسكري بـ45 عامًا، ليظل قادرًا على التأثير في الجنود الشباب.

ووصل الأمر إلى حد إجباره إذاعة الجيش على التوقف عن البث يوم السبت، وفرض أوامر امتثال معيارية على مختلف الوحدات باعتبار السبت يومًا مقدسًا، ووصولًا إلى الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة (2008-2009)، إذ تنقل الصحافة الإسرائيلية وجود الحاخام أفيخاي رونتسكي على حدود القطاع، موزعًا الكتيبات على الجنود، ومحدّثًا إياهم من "إظهار الرحمة للأعداء القساة"، واصفًا ما يقومون به بأنه "معركة ضد العماليق"، ومواجهة دينية بين "شعب إسرائيل" و"الأغيار".

أثار هذا الخطاب الديني جدلًا داخل صفوف الجيش، الذي طالما اعتُبر مؤسسة علمانية، إذ اتهمه بعض الضباط والنخب العلمانية بالسعي إلى "تدوين الجيش خلصة"، وتحويله من جيش قومي إلى جيش ذي نزعة ميسانية دينية. فيما التقطت الصحافة هذا المشهد باعتباره تويجًا لمسار متواصل من التحول التدريجي للجيش، من مؤسسة عسكرية علمانية إلى كيان "ثيوقراطي" يرتكز على النصوص التوراتية والمرجعية الدينية في تشكيل سلوك الجنود على الأرض، ووعيهم بأدوارهم القتالية.

وامتد أثر رونتسكي إلى الباحثين الإسرائيليين، الذين رأوا في ممارساته تعميقًا للاستقطاب بين المتدينين والعلمانيين، واستيلاءً على وظائف كانت تؤديها تقليديًا شعبة التعليم في الجيش، لا الحاخامية العسكرية، خاصة أن وحدته استطاعت توزيع أكثر من 10 آلاف ملف MP3 لمحاضرات دينية، كما تواجدت قوة مشتركة من الحاخامات في الميدان، موزعة كتيبًا بعنوان "الوعي اليهودي يؤكد على الرصاص المصبوب".

وبالنسبة إلى يغال ليفي، فإن "الاعتماد المتزايد على الجنود المتدينين في الوحدات القتالية كان مفيدًا، خاصة في قطاع غزة، إذ إنهم يتعاملون مع فقدان بصورة أفضل، استنادًا إلى خطاب العائلات الدينية في الجنازات، ويقبلون خسارتهم، ولا يشككون في تبرير العملية العسكرية التي أدت إلى وفاة أحبائهم". وبالنسبة له، فإن التبريرات اللاهوتية للحرب أكثر فاعلية من التبريرات المنطقية، لكن هذه الفائدة قد لا تمتد إلى مناطق أخرى، مثل مستوطنات الخليل.

وتعاضم هذا التأثير بأشكال أخرى، إذ بدأ الصدام بين شعبة التعليم في الجيش والحاخامية العسكرية، نتيجة تدخل الحاخامات وتقديمهم محاضرات غير مصرّح بها، ثم أقدمت منظمات حقوقية على رفع دعاوى تطالب بإقالة أفيخاي رونتسكي، لكنه استمر في منصبه بدعم من اليمين الديني حتى نهاية عام 2010، حين أعلن إيهود باراك أن خدمته لن تُمدد بعد ذلك.

ورغم استقالة رونتسكي، إلا أن استراتيجيته نجحت في تعزيز الحاخامية العسكرية خلال مدة وجيزة، لأنه لم يتعامل معها باعتبارها مؤسسة دينية فقط، بل حوّلها إلى مؤسسة تعبئة أيديولوجية وروحية، تمتد من الإشراف على الطعام والجنائز إلى بناء الروح القتالية، وتقديم القتال باعتباره رسالة قومية دينية.

المستوطنات تدخل الثكنات.. صعود المتدينين داخل الجيش

كما ارتبط ذلك بطبيعة الخلفية الدينية والحزبية والاجتماعية التي جاء منها، واستفاد من تحولاتها، إثر الصعود الكبير لتيار الصهيونية الدينية داخل الوحدات القتالية، وازدياد انخراط خريجي المدارس الدينية في الجيش، مقابل تراجع هيمنة النخب العلمانية الأشكنازية التقليدية، ما حوّل بؤرة التأثير داخل الجيش إلى المدارس الدينية القومية والمستوطنات ومنظماتها في الضفة الغربية.

واقترن ذلك بخطابه الذي نقل الحاخامية من الحياض الديني إلى الانغماس القومي الاستيطاني، جاعلاً من كل مواجهة مع الفلسطينيين معركة وجودية ذات بُعد توراتي. وكان هذا الحشد مقيداً للعلمانيين، خاصة أن المتدينين احتشدوا في وحدات المشاة والمظليين، كما كان مقيداً للمتدينين الذين وجدوا رابطاً مباشراً بين الحرب والاستيطان.

وهكذا، عندما غادر رونتسكي منصبه، كانت البنية الحاخامية العسكرية التي أسسها قد أصبحت متجذرة، عبر ازدياد عدد الضباط المتدينين، وتوسع المدارس الدينية العسكرية، وتعاضم حضور الحاخامات في قلب المعارك ووعي الجنود. أما التغييرات، فقد شملت ارتفاعاً ملحوظاً في أعداد الجنود المتدينين، والقادة الدينيين داخل الوحدات الميدانية، وتغيراً في خلفياتهم الدينية، إذ بات كثير منهم يحمل شهادات دراسة دينية من المعاهد التوراتية. كما ازدادت نسبة التحاق النساء المتدينات بالجيش، لترتفع خلال خمسة أعوام من 935 إلى 2159 مجنّدة عام 2015.

ولمحاصرة هذه المتغيرات، لجأت الحكومة إلى اختيار حاخامات أقل اتصلاً بالمنظمات الاستيطانية في الضفة الغربية، مثل رافي بيريتس، الذي بقي في منصبه حتى نهاية عام 2016، ثم إيال كريم، الذي استمر حتى عام 2021، رغم الجدل الذي أثارته فتاواه، ومنها تبريره اغتصاب نساء العدو في زمن الحرب، ووصفه الفلسطينيين بأنهم "حيوانات"، إضافة إلى مواقفه من خدمة النساء والاختلاط، وما أثارته من تردد واعتراض داخل الأوساط العلمانية.

ورغم ذلك، ظلت بنية رونتسكي واستراتيجيته في خلق احتكاك بين المتدينين والعلمانيين، وترسيخ فكرة "الكاهن المختار للحرب"، حاضرة حتى اليوم.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن المتدينين، أو الحريديم، ليسوا تياراً واحداً، بل تيارات متعددة، لكن أبرزها انخراطاً في الميدان والسياسة هو تيار الصهيونية الدينية، الذي وجد في هذا الانخراط قدرة على توسيع الاستيطان، وتغيير طبيعة الجيش والدولة، في مفارقة مع تيارات حريدية أخرى ترفض التجنيد، وترى أن دراسة التوراة مقدّمة على الخدمة العسكرية.

إذ تؤمن الصهيونية الدينية "بوجود وصية إلهية تلزم الرجال بالخدمة في جيش الدفاع الإسرائيلي"، على عكس الحريديم أو الأرثوذكس المتشددين، رغم أن الطرفين يلتزمان بالنصوص القانونية اليهودية نفسها، ويستشهدان بعلماء التلمود أنفسهم ويقدمسانهم، ويشتركان في البنية اللاهوتية ذاتها فيما يتعلق بالخلق والتاريخ وسلطة "الهالاخا"، أو الشريعة اليهودية، سواء على المستوى النظري أو العملي.

الحرب كعبادة.. كيف انعكس الخطاب الديني على الميدان؟

السابع من أكتوبر.. لحظة انفجار الحاخامية العسكرية

مع اندلاع عملية السابع من أكتوبر/تشرين الأول 2023، تقدم قرابة 3 آلاف يهودي حريدي للتطوع في صفوف وحدات جيش الاحتلال الإسرائيلي، معظمهم ينتمون إلى المدارس الدينية الأرثوذكسية المتشددة المرتبطة بحزبي "شاس" و"يهדות هتوراه". وكانت تلك اللحظة تتويجًا لمساعي أفيخاي رونتسكي، التي أُنحت بيئة عسكرية مناسبة ومشجعة للحريديم على الانخراط في الجيش، وفي الوقت نفسه شكّلت لحظة تقارب بين الصهيونية الدينية والحريديم المتشددين.

لكن لحظة التقارب ظهرت في مراحل سابقة، أبرزها نشر الحاخامين يتسحاق شايبيرا ويوسف إيتسور عام 2009 كتاب "توراة الملك: توضيحات هلاخية في مسائل المملكة والحروب"، الذي ضم عنوانًا فرعيًا حول "العلاقات بين اليهود وغير اليهود في مسائل الحياة والموت"، وطرح تصورًا يمنح حياة اليهودي أولوية على "حياة الأممي"، بما يتيح، وفق منطق، قتل كل من يشكل خطرًا على حياة اليهودي حتى إن لم يكن مذنبًا بصورة مباشرة.

ويمتد ذلك إلى تبرير ضرب أهداف معادية حتى لو أدى ذلك إلى الإضرار بالمدينين، إذ يورد الكتاب مثلًا على "قصف أهداف عسكرية لجيش العدو، حتى لو كان الناس يعيشون بالقرب من هذه الأهداف وقد يتضررون"، لكن ما منح الكتاب أهمية أكبر، هو تأكيد ثلاثة حاخامات من المرجعيات الحريدية المتشددة له، وهم يعقوب يوسف، ابن الحاخام الأكبر السابق عوفاديا يوسف، ودوف ليثور، حاخام مستوطنة "كريات أربع"، إضافة إلى يتسحاق غينسبورغ.

وأثار هذا الإجماع غضب الأوساط العلمانية داخل الدولة، التي اعتبرته مدخلًا لتعميق الانتقادات الدولية لـ"إسرائيل"، وانقلابًا على "مبدأ طهارة السلاح" الذي تبناه الجيش عام 1992، وينص على أن الجندي لا يستخدم سلاحه وقوته لإلحاق الضرر بالبشر غير المقاتلين أو الأسرى، إلا في حالات الدفاع عن النفس، وهو المبدأ الذي تستند إليه "إسرائيل" في وصف جيشها بأنه "الأكثر أخلاقية في العالم".

لكنه، على أرض الواقع، كان تأكيدًا على تزايد وزن الحاخاميين داخل الجيش، وارتباط ذلك بنمط جديد من الحروب، من شأنه أن يؤدي إلى تغيير في صورة "إسرائيل" الديمقراطية، وتوتر متزايد بين القانون الدولي والخطاب الديني، خاصة بعدما أصبحت الفتاوى الدينية تعتبر الحرب مقدسة، حتى وإن أفضت إلى انتهاكات تتنافى مع أوامر القيادة العسكرية.

ومن ناحية أخرى، ورغم تأثير السابع من أكتوبر على الحاخامية العسكرية، وقوة سرديتها وفتاواها في مواجهة القيادة العسكرية العلمانية، إلا أن قدراتها كانت قد توضحت في وقت سابق من عام 2023، حين أصبح 60% من الضباط في الوحدات القتالية من الموالين للتيار الديني، وارتفعت النسبة إلى 70% في ألوية المشاة المختارة، و75% في الوحدات الخاصة. أما الأبرز، فهو أن 95% من الجنود المتدينين أقرّوا بأنهم "لا يمكنهم الانصياع لأوامر عسكرية ما لم تكن متسقة مع الفتاوى التي يصدرها الحاخامات".

وبهذا، لم تكن الحاخامية أو الصهيونية الدينية بحاجة إلى السابع من أكتوبر نفسه، بقدر حاجتها إلى الحروب والتوسع والضم لزيادة تأثيرها. ويؤكد ذلك تفاهم المدارس الدينية الذي ظهر في نهاية الثمانينيات، وعُرف باسم "يشيفوت ههسدير"، والقائم على تأدية المتدينين خدماتهم العسكرية في وحدات خاصة ذات "انعزال إرادي"، ما أتاح لمنظمات مثل "غوش إيمونيم" تشكيل وحدات قائمة على مستوطني الضفة الغربية، ومنح المتدينين قدرة على التأثير المباشر في طابع الجيش بأكمله.

وقد أنتج ذلك انحرافًا باتجاهين عن علمانية الجيش، أو "ديمقراطيته" وفقًا للصياغة العلمانية. تمثل

الاتجاه الأول في كسر مبدأ فصل الجندي عن محيطه الاجتماعي، ما أعاد تشكيل هويته من "مواطن جندي" إلى "مواطن متدين". أما الاتجاه الثاني، فتمثل في الزج بالجيش في الصراعات الداخلية للنظام، حتى بوصفه قوة شرطية.

وهكذا تمكنت المدارس الدينية من إبقاء المجند على تواصل دائم مع مدرسته الدينية خلال خدمته العسكرية، ما أنتج تديينًا متزايدًا للجيش، وتصدعًا لمبدأ دافيد بن غوريون، الذي رفض فصل الوحدات الدينية عن الوحدات العلمانية خوفًا من الولاء المزدوج بين الجيش والأحزاب والمدارس الدينية. لينتهي الأمر بشبكة مدارس دينية مرتبطة بالأحزاب، تقام لها وحدات خاصة، يخدم فيها جنود متدينون من طلاب تلك المدارس ومن أتباع فتاواها.

التوراة في غزة.. كيف تغير السلوك الميداني للجنود؟

ثم جاء السابع من أكتوبر بخطاب سياسي وديني ورسمي، دفع جزءًا من المجتمع نحو الابتعاد عن الدين والانغماس في العلمانية، بينما استطاع الجزء الآخر استثمار المشهد لتبرير توسعه، مدعومًا بحاجة بنيامين نتنياهو إلى استمالة الأحزاب الدينية لعبور الأزمة، مقتبسًا من مفاهيمها وفتاواها، حين قال في 28 أكتوبر/تشرين الأول 2023: "لدينا هدف أسمي واحد: تدمير العدو القاتل"، ثم أضاف، مستشهدًا بسفر التثنية: "اذكروا ما فعل بكم عماليق".

هذه العبارة التوراتية، التي صيغت كأمر إلهي بإبادة شعب العماليق -الفلسطيني، وفق وصف نتنياهو- عن بكرة أبيه، لم تكن مجرد استعارة بلاغية، بل إشارة واضحة إلى تحول عميق في طبيعة جيش الاحتلال الإسرائيلي وخطابه، بحيث تغدو الحاخامية العسكرية بوصلته ومحركه الأول.



جنود إسرائيليون يحرقون منزلًا في مدينة غزة ليلة 9 أكتوبر/تشرين الأول. المصدر: مواقع التواصل الاجتماعي.

لكن هذا الخطاب لم يصدر عن نتياهو وحده، بل تكرر على لسان عضو الكنيست أفيحاي بورون، الذي استشهد بوصية محو عماليق في سياق الحرب على غزة، وإيتمار بن غفير، وعميحي إياهو الذي دعا صراحة إلى محو غزة، وبتسلييل سموتريتش الذي استشهد بنصوص التوراة لتأكيد فكرة "الحرب المقدسة الشاملة"، وحتى أرئيل بورات، وهو شخصية علمانية شاركت في احتجاجات "الديمقراطية" ضد الانقلاب القضائي، استخدم وصف "عماليق" لتبرير الهجوم على غزة.

وعلى الأرض، بدأ المشهد تأكيدًا لفكرة "حرب العماليق المقدسة". فإلى جانب ارتفاع أعداد المتدينين الملتحقين بالجيش، انتشر خطاب عسكري ديني يُظهر مجموعات كبيرة من الجنود، بزيمهم العسكري وأسلحتهم، يرقصون في غزة ويهتفون بآيات من سفر التثنية حول محو عماليق، مدعومين من منظمة "أنفعيم" التي يقودها الحاخام يغال كوهين.

ثم في مارس/آذار 2024، نشرت القناة 14 الإسرائيلية تقريرًا يظهر مزيعين ومراسلين وجنودًا يتلون "مجلة بوريم" - قصة إستر وهزيمة هامان، المنحدر من نسل عماليق - على خلفية الدمار في غزة، تحت شعار: "بعون الله، سننتصر معًا"، في مشهد بدأ أن المؤسسة الرسمية الإسرائيلية لم تعد قادرة على السيطرة عليه أو احتوائه.

إذ أشارت البيانات الإحصائية إلى تغير ديموغرافي وإثني داخل الجيش خلال العقد الأخير، خاصة في الرتب العليا منه، أي بين الضباط، حيث بلغت نسبة الطلبة المتدينين في الوحدات القتالية 30% عام 2010، بينما كان ستة من أصل سبعة ضباط في لواء "غولاني" من المتدينين، في حين بلغت النسبة في لواء "كفير"، المتمركز في الضفة الغربية، ثلاثة من أصل سبعة. أما في ألوية سلاح المشاة وسلاح المظليين، فارتفعت النسبة إلى 50%، بينما يتمركز العلمانيون بصورة أكبر في شعبة الاستخبارات العسكرية "أمان"، وسلاح الجو، والوحدات العسكرية العاملة في المجال الإلكتروني.

في المقابل، أشارت بيانات عام 2024 إلى أن 40% من خريجي كليات ضباط المشاة في الجيش ينتمون إلى تيار ديني وطني، لا يشكل سوى ما بين 12% و14% من المجتمع اليهودي الإسرائيلي، وبميل سياسيًا إلى التوافق مع أحزاب اليمين واليمين المتطرف، وحركة الاستيطان.

هذا التغير السريع دفع صحيفة ذا تيليغراف إلى وصف الحاخامية العسكرية عام 2025 بأنها أصبحت "أكثر عضلاتية"، خاصة بعد تأسيسها وحدات قتالية تتبع الوصايا الدينية، مثل كتيبة "متساح"، التي ارتبط اسمها بارتكاب انتهاكات وجرائم بحق الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة.

وتبرر الصحيفة صعوبة تغيير هذا المشهد بتزايد النقص في أعداد الجنود خلال الحرب، والحاجة المتزايدة إلى الجنود المتدينين للقيام بالقتال الفعلي، إذ قدر المعلق السياسي أميت سيفال أن أكثر من 60% من جنود جيش الاحتلال الإسرائيلي الذين قتلوا في أكتوبر/تشرين الأول كانوا من الصهاينة المتدينين، إضافة إلى طبيعة الخدمة العسكرية للمتدينين، التي تجمع بين الدراسة التلمودية والخدمة العسكرية داخل الجيش.

وفقًا للخدمة الدينية، أو برنامج "سفرًا وسيفًا" (الكتاب والسيف)، الذي ابتكره مقاتل "الهاجاناه" السابق يهودا عميتال، فإن الطالب يقضي سنة ونصف السنة في دراسة التوراة بدوام كامل، يليها 16 شهرًا في الخدمة العسكرية الفعلية، ثم يعود لإكمال دراسته الدينية.

ورغم أن مدة الخدمة أقصر، إلا أن معدل التحاق طلبة البرنامج بالوحدات القتالية يصل إلى 80% مقارنة بمعدل التحاق العلمانيين، الذين تمت خدمتهم إلى 32 شهرًا، ما يجعل النتيجة النهائية للخدمة

القتالية تتجاوز الفارق الزمني المختصر.



جندي إسرائيلي يصلي في منطقة تجمع خارج شمال قطاع غزة في يوليو/تموز 2014. الصورة: رويترز / أمير كوهين.

ووفقًا لهذا التأطير، يُقدّم الجندي المتدين باعتباره يؤدي وصية تلمودية، إذ لا يُنظر إلى قتاله باعتباره واجبًا دينيًا أو وطنيًا فحسب، بل عبادة، وحتى الحرب لا تعدو بالضرورة شرًا، بل جزءًا من مشروع خلاصي تنتظره الصهيونية الدينية لاستعادة "أرض إسرائيل" الكاملة و"الكبرى".

وانعكس ذلك على السلوك الميداني للجنود، الذي شمل استهداف المدنيين، وارتكاب مجازر، وتفجير كنائس وتمثيل مسيحية، ومحو مرافق تاريخية وثقافية، ونشر مقاطع رقص وتفاخر بهدم منازل الفلسطينيين، وإدخال الشمعدان إلى قلب غزة خلال الأعياد اليهودية، وكتابة الشعارات الدينية على الجدران.

ووفقًا لصحيفة "بليز نيوز"، فإن هيمنة الحاخامية العسكرية يمكن التعبير عنها في عام 2026 عبر حادثتيه؛ الأولى تتعلق بجندي من جيش الاحتلال الإسرائيلي يرتدي الزي الرسمي، ظهر وهو يحطم تمثالًا ليسوع المسيح بمطرقة ثقيلة، أما الثانية فتمثلت في مقطع فيديو يُظهر تدنيس كنيسة أرثوذكسية في دير ميماس بلبنان، أواخر نوفمبر/تشرين الثاني 2024.

ويظهر هذا التحول، بحسب الصحيفة، في رد فعل جيش الاحتلال الإسرائيلي نفسه، الذي بدا وكأنه اعتراف ضمني بأن القيادة العسكرية "العلمانية" لم تعد تسيطر على الأرض بالقدر الكافي، وأنها تواجه معضلة تحول ثقافي ديني تقوده حاخامية عسكرية أكثر قوة، تدفع الجيش إلى التعامل مع أفكار شعبية مثل "مشروع إسرائيل الكبرى" التوسعي، وحوادث الاعتداء على الكنائس والأديرة.

وفي هذا السياق، يمكن فهم صعود الحاخامية العسكرية بعد السابع من أكتوبر باعتباره جزءًا من إعادة تشكيل البنية الأيديولوجية للجيش، لا مجرد تغيير ديني داخلي، بل باعتباره انتقالًا تدريجيًا من "العسكرة القومية" إلى "العسكرة الخلاصية"، حيث تصبح الحرب أداة لتحقيق تصور ديني للأرض والسيادة

والرهوية.

الحاخامية العسكرية ومستقبل "إسرائيل"

بعد السابع من أكتوبر، أثبت الواقع الإسرائيلي أن الحاخام العسكري لم يعد مجرد مزود خدمات دينية، بل أصبح جزءاً من بناء الروح القتالية والهوية المعنوية للجنود، ومن التعبئة الدينية الواسعة داخل المجتمع الإسرائيلي، إثر ازدياد حضور الخطاب التوراتي في تبرير الحرب ومنحها شرعية التدمير والانتهاك. وهو ما يجعل استمرار الحرب وقوداً لاستمرار الحاخامية العسكرية وتوسّع أدوارها، خاصة مع عدم حسم الحروب في قطاع غزة ولبنان، والحاجة إلى استكمال السيادة الإسرائيلية والاستيطان في الضفة الغربية. وفي المقابل، يدفع هذا المسار الجيش إلى إعادة تعريف نفسه ودوره، من مؤسسة علمانية إلى مؤسسة مرتبطة بمشروع ديني استيطاني.



جندي يرتدي شال الصلاة اليهودي يظهر أثناء صلاة الصباح قرب دبابته، بالقرب من الحدود مع لبنان، في 25 أكتوبر/تشرين الأول 2023. الصورة: مايكل غيلادي / Flash90.

ويبدو ذلك صعباً حتى الآن، في ظل استمرار أزمة التجنيد في صفوف الحريديم المتشددين، وإمكانية اتساع الهوة بينهم وبين تيار الصهيونية الدينية، الذي قد يتحول إلى لاعب أساسي في دمج المتدينين داخل الجيش، وفي تحديد مسار الحكومة واستقرارها.

لكن غير المتوقع هو تراجع الحاخامية العسكرية عن مواقعها، أو تنازلها عن شبكتها غير الرسمية، وارتباطاتها بالمستوطنين والمدارس الدينية، أو فك الارتباط بين الفعل العسكري والرسمي الإسرائيلي وبين التوراة وتفسيراتها، خاصة في ظل انخفاض معدلات التجنيد في الأوساط العلمانية، وارتفاع معدلات المواليد في الأوساط الدينية، وتزايد التحاق الشبان المتدينين بالوحدات القتالية.

واليوم تدفع هذه التغيرات العلمانيين إلى التحذير من أن نهاية "إسرائيل" قد تتحول من نهاية كيان إلى

نهاية منظومة ديمقراطية، نتيجة هيمنة الأيديولوجيات الخلاصية التي لا تميل إلى التسوية السياسية، وتعتبر أي صراع أو حرب جزءًا من سياق "نهاية العالم" و"هرمجدون".

ومن زاوية أخرى، فإن هذا التغيير يعزز النظرة العربية والفلسطينية إلى "إسرائيل" والصراع معها بوصفه صراعًا دينيًا، لا صراعًا سياسيًا يمكن حسمه عبر القوانين الدولية والأعراف السياسية والأممية، ويجعل من المهم إعادة النظر في الفعل الإسرائيلي وتفسيره ضمن هذا السياق، بدلًا من التعامل مع "الإبادة والمحو" باعتبارهما فعلين طارئین يمكن التراجع عنهما.

وهكذا يبقى سؤال المستقبل معلقًا بين مسارين؛ تطور الحاخامية العسكرية واتساع نفوذها، أو إعادة تعريف "إسرائيل" لنفسها ووظيفتها، وبالتالي حدود هيمنتها في المنطقة العربية.

رابط المقال: <https://www.noonpost.com/374439/>